من (الإرشاد) للشيخ المفيد

قراءة في نصوص أجواء وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله

الشيخ حسين كوراني

يوم وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله هو يوم الفجيعة الأعظم بوجهَيها المؤلَمَين:

١) فقدُ سيّد النبيّين صلّى الله عليه وآله.

٢) وأنّه مضى غريباً مظلوماً لم يُقدَّر حقّ قدره، كما لم يُقدَّرِ اللهُ تعالى حقّ قدره.

أن يتوفّى سرّ الوجود والرحمة واللّطف فتلك فجيعة، ولكن أن يتوفّى مظلوماً فذلك أقسى على قلب كلّ مؤمن وأمَضّ. فكيف إذا خُتمت الغربة وخُتم الظلم للنبيّ الأعظم وكلامه ﴿..وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم:٤، بأن يقال: (إنّ الرجل لَيهجر)، أو (غلب عليه الوجع)، أي أنّه يهذي!

عذراً يا ربّ، وعذراً يا صاحب الزمانّ ويا سادتي يا أهل البيت.

السبب المركزي لكلّ هذا الأذى والغربة هو:

أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أمضى عمره يبلّغ عن الله، تعالى، أنّ بقاء الإسلام يتوقّف على وجوب حبّ أهل البيت، عليهم السلام، وعلى طاعتهم. وكانت قريش بعد أن عجزت عن القضاء على رسول الله صلّى الله عليه وآله، تعمل لصرف الخلافة عن أهل البيت. وفي روايات الفترة الأخيرة من عمره الشريف حشدٌ هائل من الأدلّة على محاولات قريش المتكرّرة التي خُتمت بقول القائل: (غلب عليه الوجع، إنّ الرجل ليَهجُر)!

كلّ هذا الظلم لرسول الله صلّى الله عليه وآله، والأذى الذي لم يؤذَ نبيٌّ بمثله، لأنه بلّغ عن الله تعالى أنّ بقاء الإسلام رهن حبّ أهل البيت عليهم السلام، وطاعتهم، وعدم تقديم أحد عليهم.

بدأ صلّى الله عليه وآله تأكيد خلافة أمير المؤمنين، ووجوب حبّ أهل البيت وطاعتهم عليهم السلام قبل الهجرة. وعندما نزلت آية الإنذار: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء:٢١٤، يومها قال لعليٍّ عليه السلام: «**أَنْتَ خَليفَتي مِنْ بَعْدي**».

كانت قريش، في البداية، تريد قتل الرسول صلّى الله عليه وآله ولم تكن تُدخل في حسابها أنّ هناك مجالاً لبقائه حيّاً لَيستخلِف.

وفي مرحلةٍ تالية - خصوصاً بعد السنة الخامسة للهجرة، أي بعد حرب الخندق - تصاعدت وتيرة العمل ضدّ أهل البيت عليهم السلام، وإيذاء النبيّ بهم. وصولاً إلى الصحيفة التي تعاقدوا وتعاهدوا فيها على منع أهل

(غربة رسول الله صلّى الله عليه وآله من حجّة الوداع إلى الوفاة) هو عنوان المحاضرة التي ألقاها العلّامة الشيخ حسين كوراني في إطار سلسلة المحاضرات والدروس حول السيرة النبويّة المُقدّسة. في هذه المحاضرة يتحدّث سماحته عن معنى الغربة وأبعادها في حياة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله، وتتضمّن قراءة في نصوص أجواء الوفاة للشيخ المفيد.

البيت عليهم السلام - أي منع عليّ عليه السلام - من استلام خلافة الرسول صلى الله عليه وآله.

وفي المقابل، كان الهدف المركزيّ في القرآن الكريم وسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وحديثه على المنبر، وغيره، هو تثبيت موقع أهل البيت عليهم السلام كاستمرارٍ حصريٍّ له صلى الله عليه وآله.

استبطأت العربُ وفاة الرسول

أورد ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه على (نهج البلاغة) النصّ التالي:

«قال له قائل: يا أمير المؤمنين! أرأيتَ لو كان رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم تركَ وَلَداً ذكراً قد بَلَغ الحُلُمَ، وآنس منه الرّشد، أكانَت العَرَبُ تُسَلِّمُ إليه أمرها؟

قال: لا، بَلْ كانَتْ تَقْتُلُهُ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما فَعَلْتُ، إِنَّ العَرَبَ كَرِهَتْ أَمْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، وَحَسَدَتْهُ عَلى ما آتاهُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاستطَالَتْ أَيّامَهُ حَتّى قَذَفَتْ زَوْجَتَهُ، ونَفّرَتْ بِهِ ناقَتَهُ، مَعَ عَظيمِ إِحْسانِهِ إِلَيْها، وَجَسيمِ مِنَنِهِ عِنْدَها، وَأَجْمَعَتْ مُذْ كانَ حَيّاً عَلى صَرْفِ الأَمْرِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ.

وَلَوْلا أَنَّ قُرَيْشاً جَعَلَتْ اسْمَهُ ذَريعَةً إِلى الرِّئاسَةِ، وَسُلَّماً إِلى العِزِّ وَالإِمْرَةِ، لَما عَبَدَتِ اللهَ بَعْدَ مَوْتِهِ يَوْماً واحِداً، وَلارْتَدَّتْ في حافِرَتِها، وَعادَ قارِحُها جَذَعاً، وَبازِلُها بِكْراً.

ثُمَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْها الفُتوحَ، فَأَثْرَتْ بَعْدَ الفاقَةِ، وَتَمَوَّلَتْ بَعْدَ الجُهْدِ وَالمَخْمَصَةِ، فحَسُنَ في عُيونِها مِنَ الإِسْلامِ ما كانَ سَمْجاً، وَثَبَتَ في قُلُوبِ كَثيرٍ مِنْها مِنَ الدّينِ ما كانَ مُضْطَرِباً، وَقالَتْ: لَوْلا أَنَّهُ حَقٌّ لَما كانَ كَذا!

ثُمَّ نَسَبَتْ تِلْكَ الفُتُوحَ إِلى آراءِ وُلاتِها، وَحُسْنِ تَدْبيرِ الأُمَراءِ القائِمينَ بِها، فَتَأَكَّدَ عِنْدَ النّاسِ نَباهَةُ قَوْمٍ وَخُمولُ آخَرينَ! فَكُنّا نَحْنُ مِمَّنْ خَمُلَ ذِكْرُهُ، وَخَبَتْ نارُهُ، وَانْقَطَعَ صَوتُهُ وَصِيتُهُ، حَتّى أَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْنا وَشَرِبَ!

> «..وَلَوْلا أَنَّ قُرَيْشاً جَعَلَتْ اسْمَهُ ذَريعَةً إِلى الرِّئاسَةِ، وَسُلَّماً إِلى العِزِّ وَالإِمْرَةِ، لَما عَبَدَتِ اللهَ بَعْدَ مَوْتِهِ يَوْماً واحِداً..»

وَمَضَتِ السُّنونُ وَالأَحْقابُ بما فيها، وَماتَ كَثيرٌ مِمَّنْ يَعْرِفُ، وَنَشَأَ كَثيرٌ مِمَّنْ لا يَعْرِفُ. وَما عَسَى أَنْ يَكونَ الوَلَدُ لَوْ كانَ!

إِنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُقَرِّبْني - ما تَعْلَمُونَهُ مِنَ القُرْبِ - لِلنَّسَبِ وَاللُّحْمَةِ، بَلْ لِلجِهادِ وَالنَّصيحَةِ، أَفَتَراهُ لَوْ كانَ لَهُ وَلَدٌ هَلْ كانَ يَفْعَلُ ما فَعَلْتُ؟ وَكَذاكَ (كذلك) لَمْ يَكُنْ يقرُب ما قَرُبت؟!

ثُمَّ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ قُرَيْشٍ وَالعَرَبِ سَبَباً لِلحُظْوَةِ وَالمَنْزِلَةِ، بَلْ لِلحِرْمانِ وَالجَفْوَةِ!

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ إِنّي لَمْ أَرِدِ الإِمْرَةَ وَلا عُلُوَّ المُلْكِ وَالرِّئاسَةِ، وَإِنَّما أَرَدْتُ القِيامَ بِحُدُودِكَ، وَالأَداءَ لِشَرْعِكَ، وَوَضْعَ الأُمورِ في مَواضِعِها، وَتَوْفيرَ الحُقوقِ عَلى أَهْلِها، وَالمُضِيَّ عَلى مِنْهاجِ نَبِيِّكَ وَإِرْشادَ الضّالِّ إِلى أَنْوارِ هِدايَتِكَ».

وممّا يؤكّد استعجال (القوم) موت رسول الله صلى الله عليه وآله ما بدر منهم ليلة (العقبة) عند عودة رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة تبوك، قبل حجّة الوداع بِسنَتَيْن، حينما نفّروا به ناقته لتُلقي به صلّى الله عليه وآله في الوادي، ولكنّ مؤامرتهم باءت بالفشل.

لنتابع من هنا ما حصل من حجّة الوداع إلى وفاته صلى الله عليه وآله ليتّضح أنّ جوّ قريش كان الإصرار على منع الخلافة عن عليٍّ وأهل البيت عليهم السلام وكان كلّ هدف النبيّ صلى الله عليه وآله تثبيت ولايتهم، بما هو أعمّ من السلطة الظاهرية والحكم.

حجّة الوداع

كان عليّ عليه السلام قد توجّه إلى اليمن، فكتب إليه النبيّ صلّى الله عليه وآله، ليقدم إلى مكّة للحجّ. قال الشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه في (الإرشاد) ما يلي:

([كان] رسول الله صلّى الله عليه وآله

(...) قد أنفذه عليه السّلام إلى **اليَمَن لِيُخمِّسَ زَكاتَها، وَيَقْبِضَ ما وافَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ نَجْرانَ مِنَ الحُلَلِ وَالعَيْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ**. (...).

[و] أراد رسول الله صلّى الله عليه وآله التوجّه للحجّ وأداء فرض الله تعالى عليه فيه، فأذّن في الناس به، وبلغت دعوته عليه السلام أقاصي بلاد الإسلام، فتجهّز الناس للخروج وتأهّبوا معه، وحضر المدينة من ضواحيها ومن حولها وبقرب منها خلقٌ كثير، وتهيّأوا للخروج معه، فخرج النبيّ صلّى الله عليه وآله بهم لخمسٍ بقين من ذي القعدة، وكاتب أمير المؤمنين عليه السلام بالتوجّه إلى الحجّ).

تعجيل الإمام لملاقاة الرسول عليهما الصلاة والسلام

يتابع الشيخ المفيد:

(فلما قارب رسول الله صلّى الله عليه وآله مكّة من طريق المدينة، قاربها أمير المؤمنين عليه السلام من طريق اليمن، وتقدّم الجيشَ للقاء النبيّ صلّى الله عليه وآله وخلّف عليهم رجلاً منهم، فأدرك النبيَّ عليه وآله السلام وقد أشرف على مكّة، فسلّم وخبّره بما صنع وبقبض ما قبض، وأنّه سارع للقائه أمام الجيش، فسُرَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله بذلك، وابتهج بلقائه، وقال له:

«**بِما أَهْلَلْتَ يا عَلِيُّ؟**»

فقال له: «**يا رَسولَ اللهِ، إِنَّكَ لَمْ تَكْتُبْ إِلَيَّ بِإِهْلالِكَ وَلا عَرَّفْتَنيهِ، فَعَقَدْتُ نِيَّتي بِنِيَّتِكَ، وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ إِهْلالاً كَإِهْلالِ نَبِيِّكَ، وَسُقْتُ مَعي مِنَ البُدْنِ أَرْبَعاً وَثَلاثين بُدْنَةً**».

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**اللهُ أَكْبَرُ، فَقَدْ سُقْتُ، أَنا، سِتّاً وَسِتّينَ، وَأَنْتَ شَريكي في حَجّي وَمَناسِكي وَهَدْيي، فَأَقِمْ عَلى إِحْرامِكَ، وَعُدْ إِلى جَيْشِكَ فَعَجِّلْ بِهِمْ إِلَيَّ حَتّى نَجْتَمِعَ بِمَكَّةَ إِنْ شاءَ اللهُ**».

> «ارْفَعوا أَلْسِنَتَكُم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ، فَإِنَّهُ خَشِنٌ فِي ذاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، غَيْرُ مُداهِنٍ فِي دينِه»

فودعّه أمير المؤمنين عليه السلام وعاد إلى جيشه، فلقيَهم عن قُرب، فوجدهم قد لبسوا الحلل التي كانت معهم، فأنكر ذلك عليهم، وقال للذي كان استخلفه فيهم:

«**وَيْلَكَ، ما دَعاكَ إِلى أَنْ تُعْطِيَهُمُ الحُلَلَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَدْفَعَها إِلى النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلامُ، وَلَمْ أَكُنْ أَذِنْتُ لَكَ في ذَلِكَ؟**».

فقال: سألوني أن يتجمّلوا بها، ويُحرموا فيها، ثمّ يردّونها عليَّ. فانتزعها أمير المؤمنين عليه السلام من القوم، وشدّها في الأعدال، فاضطغنوا لذلك عليه.

فلمّا دخلوا مكّة كثرت شكايتهم من أمير المؤمنين عليه السلام، فأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله مناديه فنادى في الناس: «**ارْفَعوا أَلْسِنَتَكُمْ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ، فَإِنَّهُ خَشِنٌ في ذاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، غَيْرُ مُداهِنٍ في دينِهِ**»، فكفّ الناس عن ذِكره، وعلموا مكانه من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسخطَه على من رامَ الغميزة فيه.

فأقام أمير المؤمنين عليه السلام على إحرامه تأسّياً برسول الله صلّى الله عليه وآله.

وكان قد خرج مع النبيّ صلّى الله عليه وآله كثيرٌ من المسلمين بغير سياق هَدي. فأنزل الله عزَّ ذكره: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ..﴾ البقرة:١٩٦.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**دَخَلَتِ العُمْرَةُ في الحَجِّ** - وشبك بين أصابع إحدى يديه بالأخرى - **إِلى يَوْمِ القِيامَةِ**».

ثم قال عليه وآله السلام: «**لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْري ما اسْتَدْبَرْتُ، ما سُقْتُ الهَدْيَ**».

ثمّ أمر مناديه فنادى: «**مَنْ لَمْ يَسُقْ مِنْكُمْ هَدْياً فَلْيُحِلَّ وَلْيَجْعَلْها عُمْرَةً، وَمَنْ ساقَ مِنْكُمْ هَدْياً فَلْيُقِمْ عَلى إِحْرامِهِ**».

فأطاع بعض الناس في ذلك وخالف بعض، وجرت خطوبٌ بينهم فيه، وقال منهم قائلون: إنّ رسول الله ﷺ أشعث أغبر، ونلبس الثياب ونقرب النساء وندّهن!

وقال بعضهم: أما تستحيون أن تخرجوا ورؤوسكم تقطر من الغسل، ورسول الله ﷺ على إحرامه!

فأنكر رسول الله على من خالف في ذلك وقال: «**لَوْلا أَنّي سُقْتُ الهَدْيَ لَأَحْلَلْتُ وَجَعَلْتُها عُمْرَةً، فَمَنْ لَمْ يَسُقْ هَدْياً فَلْيُحِلَّ**» فرجع قومٌ وأقام آخرون على الخلاف.

وكان فيمن أقام على الخلاف للنبيّ صلّى الله عليه وآله عمر بن الخطاب، فاستدعاه رسول الله عليه وآله السلام وقال له: «**ما لي أَراكَ - يا عُمَرُ - مُحْرِماً، أَسِقْتَ هَدْياً؟!**»، قال: لم أسُق، قال: «**فَلِمَ لا تُحِلُّ وَقَدْ أَمَرْتُ مَنْ لَمْ يَسُقِ الهَدْيَ بِالإِحْلالِ؟**» فقال: واللهِ يا رسولَ الله لا أحللتُ وأنت محرِم، فقال له النبيّ عليه وآله السلام: «**إِنَّكَ لَنْ تُؤْمِنَ بِها حَتّى تَموتَ!**».

فلذلك أقام على إنكار متعة الحجّ، حتى رَقِيَ المنبر في إمارته فنهى عنها نهياً مُجدّداً، وتوعّد عليها بالعقاب!

في طريق العودة

لمّا انصرف رسول الله صلّى الله عليه وآله من حجّة الوداع، وصار بغدير خمّ، أمر الله، عزّ وجلّ، جبرئيل عليه السلام أن يهبط على النبيّ وقت قيام الظهر من ذلك اليوم، وأمره أن يقوم بولاية أمير المؤمنين عليه السلام وأن ينصبه علَماً للناس بعده، وأن يستخلفه في أمّته، قال الشيخ المفيد: ثمّ أمر مناديَه فنادى في الناس بالصلاة. فاجتمعوا من رحالهم إليه، وإنّ أكثرهم ليلفّ رداءه على قدميه من شدّة الرمضاء. فلمّا اجتمعوا صعد عليه وآله السلام، على تلك الرحال حتّى صار في ذروتها، ودعا

جلس النبيّ ﷺ في خيمته، وأمر عليّاً أن يجلس في خيمة له بإزائه، ثمّ أمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنّئوه بالمقام، ويسلّموا عليه بإمرة المؤمنين

أمير المؤمنين عليه السلام فرقي معه حتّى قام عن يمينه، ثمّ خطب للناس فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ فأبلغ في الموعظة، ونعى إلى الأمّة نفسَه، فقال عليه وآله السلام: «**إِنّي قَدْ دُعيتُ وَيوشِكُ أَنْ أُجيبَ، وَقَدْ حانَ مِنّي خُفوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ، وَإِنّي مُخَلِّفٌ فيكُمْ ما إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضلّوا أَبَداً: كِتابَ اللهِ وَعِتْرَتي أَهْلَ بَيْتي، وَإِنَّهُما لَنْ يَفْتَرِقا حَتّى يَرِدا عَلَيَّ الحَوْضَ**».

ثمّ نادى بأعلى صوته: «**أَلَسْتُ أَوْلى بِكُمْ مِنْكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ؟**» فقالوا: اللّهمّ بلى، فقال لهم على النسق، وقد أخذ بضِبعَي [الضبْع: وسط العضد] أمير المؤمنين عليه السلام فرفعهما حتى رُئي بياض إبطيهما، وقال: «**فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ والِ مَنْ والاهُ، وَعادِ مَنْ عاداهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ**».

ثمّ نزل صلّى الله عليه وآله - وكان وقت الظهيرة - فصلّى ركعتين، ثمّ زالت الشمس فأذّن مؤذّنه لصلاة الفرض، فصلّى بهم الظهر، وجلس صلّى الله عليه وآله في خيمته، وأمر عليّاً أن يجلس في خيمةٍ له بإزائه، ثمّ أمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنّئوه بالمقام، ويسلّموا عليه بإمرة المؤمنين، ففعل الناس ذلك كلّهم، ثمّ أمر أزواجه وجميع نساء المؤمنين معه أن يدخلن عليه، ويسلّمن عليه بإمرة المؤمنين، ففعلن.

وكان ممّن أطنب في تهنئته بالمقام عمر بن الخطاب، فأظهر له المسرّة به، وقال فيما قال: بخٍ بخٍ يا عليّ، أصبحتَ مولاي ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنة.

وجاء حسّان إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسولَ الله، إئذن لي أن أقول في هذا المقام ما يرضاه الله؟ فقال له: «قُلْ

يا حَسّانُ عَلى اسْمِ اللهِ». فوقف على نشز [مرتفع] من الأرض، وتطاول المسلمون لسماع كلامه، فأنشأ يقول:

يُناديهِمْ يَوْمَ الغَديرِ نَبِيُّهُمْ
بِخُمٍّ وَأَسْمِعْ بِالرَّسولِ مُناديا
وَقالَ: فَمَنْ مَولاكُمْ وَوَلِيُّكُمْ؟
فَقالوا وَلَمْ يُبْدوا هُناكَ التَّعاديا
إِلَهُكَ مَوْلانا وَأَنْتَ وَلِيُّنا
وَلَنْ تَجِدَنَّ مِنّا لَكَ اليَوْمَ عاصِيا
فَقالَ لَهُ: قُمْ يا عَلِيُّ فَإِنَّني
رَضيتُكَ مِنْ بَعْدي إِماماً وَهادِيا
فَمَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَهَذا وَلِيُّهُ
فَكونوا لَهُ أَنْصارَ صِدْقٍ مَوالِيا
هُناكَ دَعا: اللَّهُمَّ والِ وَلِيَّهُ
وَكُنْ لِلَّذي عادى عَلِيّاً مُعادِيا

فقال له رسول الله ﷺ: «لا تَزالُ - يا حَسّانُ - مُؤَيَّداً بِروحِ القُدُسِ ما نَصَرْتَنا بِلِسانِكَ».

قال المفيد: وإنّما اشترط رسول الله ﷺ في الدعاء له [لحسّان]، لعلمه بعاقبة أمره في الخلاف، ولو علم سلامته في مستقبل الأحوال لدعا له على الإطلاق.

عندما تحقق صلّى الله عليه وآله من دنوّ أجله

تقدّم قول النبي صلّى الله عليه وآله في خطبته يوم الغدير «قَدْ حانَ مِنّي خُفوقٌ مِنْ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ» لذلك شدّد على جملة من الوصايا ترتبط بمستقبل الأمّة؛ قال الشيخ المفيد: تحقّق [صلّى الله عليه وآله] من دنوّ أجله ما كان قدّم الذكر به لأمّته، فجعل عليه السلام يقوم مقاماً بعد مقام في المسلمين يُحذّرهم من الفتنة بعده والخلاف عليه، ويؤكّد وصايتهم بالتمسّك بسنّته والاجتماع عليها والوفاق، ويحثّهم على الاقتداء بعترته والطاعة لهم والنصرة والحراسة والاعتصام بهم في الدين، ويزجرهم عن الخلاف والارتداد. فكان فيما ذكره من ذلك عليه وآله السلام، ما جاءت به الرواة على اتّفاق واجتماع من قوله عليه السلام: «أَيُّها النّاسُ، إِنِّي فَرَطُكُمْ وَأَنْتُمْ وارِدونَ عَلَيَّ الحَوْضَ، أَلا وَإِنّي سائِلُكُمْ عَنِ الثَّقَلَيْنِ، فَانْظُروا كَيْفَ تَخْلُفُوني فِيهِمَا، فَإِنَّ اللَّطيفَ الخَبيرَ نَبَّأَني أَنَّهُما لَنْ يَفْتَرِقا حَتّى يَلْقِياني، وَسَأَلْتُ رَبّي ذَلِكَ فَأَعْطانيهِ، أَلا وَإِنّي قَدْ تَرَكْتُهُما فيكُمْ: كِتابَ اللهِ وَعِتْرَتي أَهْلَ بَيْتي، فَلا تَسْبِقوهُمْ فَتَفَرَّقوا، وَلا تُقَصِّروا عَنْهُمْ فَتَهْلِكوا، وَلا تُعَلِّموهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ.

أَيُّها النّاسُ، لا أَلْفِيَنَّكُمْ بَعْدي تَرْجِعُونَ كُفّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ، فَتَلْقوني في كَتيبَةٍ كَمَجَرِّ السَّيْلِ الجَرّارِ، أَلا وَإِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِبٍ أَخي وَوَصِيّي، يُقاتِلُ بَعْدي عَلى تَأْويلِ القُرْآنِ كَما قاتَلْتُ عَلى تَنْزيلِهِ».

حذّر رسول الله ﷺ المسلمين من الفتنة بعده والخلاف عليه، وأوصاهم بالتمسّك بسنّته والاجتماع عليها والوفاق، وحثّهم على الاقتداء بعترته والطاعة لهم والنصرة

فكان عليه وآله السلام يقوم مجلساً بعد مجلس بمثل هذا الكلام ونحوه.

جيش أسامة

ثمّ إنّه عقد لأسامة بن زيد بن حارثة الإمرة، وندَبه أن يخرج بجمهور الأُمّة إلى حيث أُصيب أبوه من بلاد الروم، واجتمع رأيه عليه السلام على إخراج جماعة من متقدّمي المهاجرين والأنصار في معسكره، حتّى لا يبقى في المدينة عند وفاته صلّى الله عليه وآله من يختلف في الرئاسة، ويطمع في التقدّم على الناس بالإمارة، ويستتبّ الأمر لَمن استخلفه من بعده، ولا ينازعه في حقّه منازع «..» وجدّ عليه وآله السلام في إخراجهم، فأمر أسامة بالبروز عن المدينة بمعسكره إلى (الجرف) [موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام]، وحثّ الناس على الخروج إليه والمسير معه، وحذّرهم من التلوّم والإبطاء عنه.

الاستغفار لأهل البقيع

فبينا هو في ذلك، إذ عرضت له الشكاة التي توفّي فيها، فلمّا أحسّ بالمرض الذي عراه أخذ بيد عليّ بن أبي طالب عليه السلام واتّبعه جماعة من الناس وتوجّه إلى البقيع، فقال لمن تبعه: «**إِنَّني قَدْ أُمِرْتُ بِالاسْتِغْفارِ لِأَهْلِ البَقيعِ**»، فانطلقوا معه حتّى وقف بين أظهرهم فقال عليه السلام: « **السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ القُبورِ، لَيَهْنِئْكُمْ ما أَصْبَحْتُمْ فيهِ مِمّا فيهِ النّاسُ، أَقْبَلَتِ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يَتْبَعُ آخِرُها أَوَّلَها**».

ثم استغفر لأهل البقيع طويلاً، وأقبل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: «**إِنَّ جَبْرَئيلَ، عَلَيْهِ السَّلامُ، كانَ يَعْرِضُ عَلَيَّ القُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَقَدْ عَرَضَهُ عَلَيَّ العامَ مَرَّتَيْنِ، وَلا أَراهُ إِلّا لِحُضورِ أَجَلي**».

ثم قال: «**يا عَلِيُّ، إِنّي خُيِّرْتُ بَيْنَ خَزائِنِ الدُّنْيا وَالخُلودِ فيها أَوِ الجَنَّةِ، فَاخْتَرْتُ لِقاءَ رَبّي وَالجَنَّةَ، فَإِذا أَنا مُتُّ فَاغْسِلْني وَاسْتُرْ عَوْرَتي، فَإِنَّهُ لا يَراها أَحَدٌ إِلّا أُكْمِهَ**».

اشتداد مرضه صلّى الله عليه وآله

ثمّ عاد إلى منزله، عليه وآله السلام، فمكث ثلاثة أيّام موعوكاً، ثمّ خرج إلى المسجد معصوب الرأس، مُعتمداً على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بيُمنى يديه، وعلى الفضل بن عبّاس باليد الأخرى، حتّى صعد المنبر فجلس عليه، ثم قال: «**مَعاشِرَ النّاسِ، قَدْ حانَ مِنّي خُفوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ، فَمَنْ كانَ لَهُ عِنْدي عِدَةٌ فَلْيَأْتِني أُعْطِهِ إِيّاها، وَمَنْ كانَ لَهُ عَلَيَّ دَيْنٌ فَلْيُخْبِرْني بِهِ.**

مَعاشِرَ النّاسِ، لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ شَيْءٌ يُعْطيهِ بِهِ خَيْراً أَوْ يَصْرِفُ بِهِ عَنْهُ شَرّاً إِلّا العَمَلَ.

أَيُّها النّاسِ، لا يَدَّعي مُدَّعٍ وَلا يَتَمَنّى مُتَمَنٍّ، وَالّذي بَعَثَني بِالحَقِّ لا يُنْجي إِلّا عَمَلٌ مَعَ رَحْمَةٍ، وَلَوْ عَصَيْتُ لَهَوَيْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟».

«..لا يَدَّعي مُدَّعٍ وَلا يَتَمَنّى مُتَمَنٍّ، وَالّذي بَعَثَني بِالحَقِّ لا يُنْجي إِلّا عَمَلٌ مَعَ رَحْمَةٍ، وَلَوْ عَصَيْتُ لَهَوَيْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟»

ثمّ نزل فصلّى بالناس صلاةً خفيفةً ودخل بيته، وكان إذ ذاك بيت أمّ سلمة، رضي الله، عنها فأقام به يوماً أو يومين.

فجاءت عائشة إليها تسألها أن تنقله إلى بيتها لتتولّى تعليله، وسألتْ أزواج النبيّ عليه وآله السلام في ذلك فأذِنّ لها، فانتقل صلّى الله عليه وآله إلى البيت الذي أسكنَه عائشة، واستمرّ به المرض أيّاماً وثقل عليه السلام.

فجاء بلال عند صلاة الصبح ورسول الله صلّى الله عليه وآله مغمورٌ بالمرض، فنادى: الصلاة يرحمكم الله، فأُوذِنَ رسول الله صلّى الله عليه وآله بندائه، فقال: «**يُصَلّي بِالنّاسِ بَعْضُهُمْ فَإِنّي مَشْغولٌ بِنَفْسي**».

فقالت عائشة: مروا أبا بكر، وقالت حفصة: مروا عُمرَ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين سمع كلامهما ورأى حرص كلّ واحدة منهما على التنويه بأبيها وافتتانهما بذلك، ورسول الله صلى الله عليه وآله حيّ [قال]: «**أُكْفُفْنَ، فَإِنَّكُنَّ صُوَيْحِباتُ يوسُفَ**»

[رواه البخاري في صحيحه ١: ١٧٢ ب ٤٦، ومسلم في صحيحه ١: ٣١٣ / ٩٤، ٩٥، ١٠١، والبيهقي في دلائل النبوة ٧: ١٨٦]

ثمّ قام عليه وآله السلام مبادراً خوفاً من تقدّم أحد الرجلين، وقد كان أمرَهما عليه السلام بالخروج إلى أسامة، ولم يكن عنده أنّهما قد تخلّفا.

فلمّا سمع من عائشة وحفصة ما سمع، علم أنّهما متأخّران عن أمره، فبدر لكفّ الفتنة وإزالة الشبهة، فقام عليه السلام - وإنه لا يستقلّ على الأرض من الضعف - فأخذ بيده عليّ بن أبي طالب عليه السلام والفضل بن عبّاس، فاعتمدهما ورِجلاه تخطّان الأرض من الضعف.

فلمّا خرج إلى المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب، فأومأ إليه

بيده أن تأخَّرْ عنه، فتأخّر أبو بكر وقام رسول الله ﷺ مقامه، فكبّر، فابتدأ الصلاة التي كان قد ابتدأ بها أبو بكر، ولم يبنِ على ما مضى من فعاله.

فلمّا سلّم انصرف إلى منزله واستدعى أبا بكر وعمر وجماعة ممّن حضر المسجد من المسلمين، ثمّ قال:

«**أَلَمْ آمُرْ أَنْ تُنْفِذوا جَيْشَ أُسامَةَ؟!**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**فَلِمَ تَأَخَّرْتُمْ عَنْ أَمْري؟**» فقال أبو بكر: إنّي كنت خرجتُ ثمّ عدت لأجدّد بك عهداً. وقال عمر: يا رسولَ الله، لم أخرج لأنّي لم أحبّ أن أسأل عنك الركب. فقال النبيّ ﷺ: «**فَأَنْفِذوا جَيْشَ أُسامَةَ، فَأَنْفِذوا جَيْشَ أُسامَةَ**» يكرّرها ثلاث مرات. ثمّ أُغمي عليه من التعب الذي لحقه والأسف، فمكث هنيهةً مغمًى عليه، وبكى المسلمون وارتفع النحيبُ من أزواجه وولده والنساء المسلمات ومَن حضر من المسلمين.

ائْتوني بِدَواةٍ وَكَتِفٍ، أَكْتُبْ لَكُمْ كِتاباً لا تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَداً

فأفاق عليه وآله السلام فنظر إليهم، ثمّ قال: «**ائْتوني بِدَواةٍ وَكَتِفٍ، أَكْتُبْ لَكُمْ كِتاباً لا تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَداً**» ثمّ أُغمي عليه، فقام بعض مَن حضر يلتمس دواةً وكتفاً، فقال له عمر: ارجع، فإنّه يَهْجُر!!! فرجع. وندم مَن حضره على ما كان منهم من التضجيع [التقصير] في إحضار الدواة والكتف، فتلاوموا بينهم فقالوا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، لقد أشفقنا من خلاف رسول الله.

فلمّا أفاق صلّى الله عليه وآله

قال بعضهم: ألا نأتيك بكَتفٍ يا رسول الله ودواة؟ فقال: «أَبَعْدَ الّذي قُلْتُم؟ لا، وَلَكِنَّني أُوصيكُمْ بِأَهْلِ بَيْتي خَيْراً»

قال بعضهم: ألا نأتيك بكَتفٍ يا رسول الله ودواة؟ فقال: «**أَبَعْدَ الّذي قُلْتُم؟ لا، وَلَكِنَّني أُوصيكُمْ بِأَهْلِ بَيْتي خَيْراً**» ثمّ أعرض بوجهه عن القوم فنهضوا، وبقي عنده العبّاس والفضل بن العبّاس وعليّ بن أبي طالب وأهل بيته خاصّة، فقال له العبّاس: يا رسول الله، إن يكن هذا الأمر فينا مستقرّاً من بعدك فبشّرنا، وإن كنتَ تعلم أنّا نُغلب عليه فأوصِ بنا، فقال: «**أَنْتُمُ الْمُسْتَضْعَفونَ مِنْ بَعْدي**». فنهض القوم وهم يبكون قد أيسوا من النبيّ ﷺ.

«أرددوا عليَّ أخي عليّ بن أبي طالب، وعمّي»

فلمّا خرجوا من عنده قال عليه السلام: «**ارْدُدوا عَلَيَّ أَخي عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِبٍ وَعَمّي**». فأنفَذوا من دعاهما فحضرا، فلمّا استقرّ بهما المجلس قال رسول الله ﷺ: «**يا عَبّاسُ، يا عَمَّ رَسولِ اللهِ، تَقْبَلُ وَصِيَّتي وَتُنْجِزُ عِدَتي وَتَقْضي عَنّي دَيْني؟**» فقال العبّاس: يا رسول الله، عمّك شيخٌ كبير ذو عيالٍ كثير، وأنت تباري الريح سخاءً وكرماً، وعليك وعدٌ لا ينهضُ به عمّك.

فأقبلَ على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: «**يا أَخي، تَقْبَلُ وَصِيَّتي وَتُنْجِزُ عِدَتي وَتَقْضي عَنّي دَيْني وَتَقومُ بِأَمْرِ أَهْلي مِنْ بَعْدي؟**»

قال: **نَعَمْ يا رَسولَ اللهِ**. فقال له: «**ادْنُ مِنّي**». فدنا منه، فضمّه إليه، ثمّ نزع خاتمه من يده فقال له: «**خُذْ هَذا فَضَعْهُ في يَدِكَ**». ودعا بسيفه ودرعه وجميع لامته، فدَفع ذلك إليه، والتمس عصابةً كان يشدّها على بطنه إذا لبس سلاحه وخرج

إلى الحرب، فجيءَ بها إليه، فدفعها إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: «امْضِ عَلى اسْمِ اللهِ إلى مَنْزِلِكَ».

ادْعوا لي أَخي وَصاحِبي

فلمّا كان من الغد حجَبَ الناس عنه وثقُل مرضه، وكان أمير المؤمنين لا يفارقه إلّا لضرورة، فقام في بعض شؤونه، فأفاق عليه السلام إفاقةً فافتقد عليّاً عليه السلام فقال - وأزواجه حوله: «ادْعوا لي أَخي وَصاحِبي». وعاوده الضعفُ فأصمت، فقالت عائشة: ادعوا له أبا بكر. فدُعي، فدخل عليه فقعد عند رأسه، فلمّا فتح عينه نظر إليه وأعرض عنه بوجهه. فقام أبو بكر وقال: لو كان له إليّ حاجة لأفضى بها إليّ. فلما خرج أعاد رسول الله صلى الله عليه وآله القول ثانية، وقال: «ادْعوا لي أَخي وَصاحِبي». فقالت حفصة: ادعوا له عمر. فدُعي، فلمّا حضر رآه النبيّ عليه السلام فأعرض عنه فانصرف.

ثمّ قال عليه السلام: «ادْعوا لي أَخي وَصاحِبي». فقالت أمّ سلمة رضيَ الله عنها: ادعوا له عليّاً، فإنّه لا يريد غيره، فدُعي أمير المؤمنين عليه السلام.

فلمّا دنا منه أومأَ إليه، فأكبّ عليه، فناجاه رسول الله صلى الله عليه وآله طويلاً، ثمّ قام فجلس ناحيةً حتّى أغفى رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقال له الناس: ما الذي أوعزَ إليك يا أبا الحسن؟ فقال: «عَلَّمَني أَلْفَ بابٍ؛ فَتَحَ لي كُلُّ بابٍ أَلْفَ بابٍ، وَوَصّاني بِما أَنا قائِمٌ بِهِ إِنْ شاءَ اللهُ».

ثمّ ثقل عليه السلام وحضره الموت وأمير المؤمنين عليه السلام حاضرٌ عنده. فلمّا قرب خروج نفسه قال له: «ضَعْ رَأْسي، يا عَلِيُّ، في حِجْرِكَ، فَقَدْ جاءَ أَمْرُ اللهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذا فاضَتْ نَفْسي

توفّي رسول الله صلّى الله عليه وآله ويدُ أمير المؤمنين عليه السلام اليمنى تحتَ حنكه، ففاضت نفسه عليه السلام فيها، فرفعها إلى وجهه فمسحَه بها

فَتَناوَلْها بِيَدِكَ وَامْسَحْ بِها وَجْهَكَ، ثُمَّ وَجِّهْني إِلى القِبْلَةِ، وَتَوَلَّ أَمْري، وَصَلِّ عَلَيَّ أَوَّلَ النّاسِ، وَلا تُفارِقْني حَتّى تُوارِيَني في رِمْسي، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ تَعالى».

فأخذ عليّ عليه السلام رأسه فوضعه في حجره فأُغمي عليه، فأكبّت فاطمة عليها السلام تنظر في وجهه وتندبه وتبكي، وتقول:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقى الغَمامُ بِوَجْهِهِ
ثِمالُ اليَتامى عِصْمَةٌ للأَرامِلِ

ففتح رسول الله صلّى الله عليه وآله عينيه وقال بصوت ضئيل:

«يا بُنَيَّة، هَذا قَوْلُ عَمِّكِ أَبي طالِبٍ، لا تَقولِيه، وَلَكِنْ قولي: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ...﴾ آل عمران:١٤٤».

[المعنى: يا بنيّة ليس الجوّ جوَّ إقبال الناس على أبيك والتبرّك به كما قال كافلي عمّك أبو طالب، بل أقبلتِ الفتنُ كقطع اللّيل المظلم، الله خليفتي عليكم، بدأ الانقلابُ على الأعقاب فاقرَئي ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ...﴾ الآية]

فبكت طويلاً، فأومأ إليها بالدنوّ منه، فدنت فأسرّ إليها شيئاً تهلّل له وجهُها.

ثمّ قضى عليه السلام ويدُ أمير المؤمنين عليه السلام اليمنى تحتَ حنكه، ففاضت نفسه عليه السلام فيها، فرفعها إلى وجهه فمسحَه بها، ثمّ وجّهه، وغمّضه، ومدّ عليه إزاره، واشتغل بالنظر في أمره.

فجاءت الرواية: أنّه قيل لفاطمة عليها السلام: ما الذي أسرّ إليك رسول الله صلى الله عليه وآله فسُرّيَ عنك ما كُنت عليه من الحزن والقلق بوفاته؟ قالت: «إِنَّهُ خَبَّرَني أَنّي أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِهِ لُحوقاً بِهِ، وَأَنَّهُ لَنْ تَطولَ الْمُدَّةُ بي بَعْدَهُ حَتّى أُدْرِكَهُ، فَسُرِّيَ ذَلِكَ عَنّي».